المقياس: بنية النص الشعري القديم المستوى: السنة الأولى ماستر أدب قديم (س1)

المحاضرة الثالثة: **مقدمات القصائد في الشعر الجاهليّ**

تشكّل مقدمة القصيدة البداية التي تقودُ إلى باقي أجزاء القصيدة من حيث الجانب الشكليّ، أما من الجانب الموضوعي فقد حملت مقدمات القصائد العديد من المعاني الذاتيّة والفكرية للشعراء وعصورهم. وقد اهتمّ النقاد والدارسونَ "قدماءُ ومعاصرونَ" من عرب ومستشرقينَ بمقدمات القصائد بالدراسة، والتحليل والتعليل.  
 ويجد النّاظرُ في ديوان الشعر العربي في الجاهلية بعضًا من القصائد بلا مقدمات، وقد شغل هذا الموضوع الباحثين كثيرًا.  
 ويؤكد ابن رشيق القيرواني أنّ بعضًا من الشّعراء القدماء لم يجعل لكلامه مقدماتٍ، ووصف تلك القصائد بالوثب والبتر والقطع، مشبهًا إياها بالخطبة البتراء.  
 ويوافق الدكتور يوسف خليف هذا الـرأي مبينًا أنّ موضوع الرثاء لا مجال فيه للتقديم ـ وهذا شائع ـ فعند الرثاء ـ مثلاً ـ تكون نفس الشاعر حزينةً بعيدةً عن اللهو، والمتعةِ. والغرض الأساسي من الرثاء الحديث عن الموت، والموت نهاية، ويرى الدكتور خليف أنّ هذه النهاية جاءت نهاية لمشكلة الفراغ، فبما أنّ الموقف والمقام جاءا حلاً للفراغ فلن يلجأ الشاعر إلى التقديم في القصائد الرثائيّة.  
 وعارض الدكتور حسين عطوان هذه الفكرةَ معللاً أنّ بعض القصائد ضاعت مقدماتها، واعتمد في رأيه على قصيدةٍ أوردها الأصمعي بلا مقدمةٍ، بينما أثبت لها أبو الخطّاب القرشي مقدمةً، فبناءً على ذلك اعتبر أنّ كثيرًا من القصائد سقطت مقدماتُها، هذا إلى جانب ضياع كثيرٍ من الشعر الجاهلي. ولكن لا أظنّ أنّ هذا المثال كافٍ لإصدار مثل هذا التّعميم: فهل من الممكن الاعتماد على شاهد واحد في الحكم على تراثِ عصر كامل؟  
**أنواع مقدمات القصائد:**  
 يقول ابن قتيبة وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصّد القصيدة (الشّاعر) إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكا وشكى، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنيين عنها. يعتمد ابن قتيبة على هذه المقولة ليجعل التقديم تمهيدًا لموضوعات أخرى يريد الشاعر الإفصاح عنها، لكن لم يقيّد أو يحدّد نوع المقدمات. ويرى ابن رشيق القيرواني أنّ الشاعرَ يذكر الأطلال لذكر أهل الديار الظاعنين، ويذكرُ الغزل؛ لاستمالة القلوب، واستدعاء إصغاء الأسماع، لأنّ الطباع تميل إلى حب الغزل واللهو والنساء، وفي ذلك استدراجٌ لما بعده. من الواضح أنّ ابن رشيق القيرواني يجعل السبب الرئيس للمقدمات هو التمهيد لما بعدها من موضوعات القصيدة.  
 ونالت مقدمات القصائد أهميّةً كبيرةً في النّقد الحديث، فقسّمها النّقادُ أنواعًا عدّةً، من أبرزها:  
1. المقدمات الطلليّة.  
2. المقدمات الغزليّة.  
3. المقدمات الخمرية.  
4. مقدمة الظعائن.  
5. مقدمات بكاء الشيب.  
6. مقدمات وصف الطيف.

**1. المقدمات الطلليّة:**   
 أكثر الشعراء من استخدام المقدمات الطلليّة، مما جعل عناية النقاد بها واضحةً في الدرس النقدي، فتناولها النقاد بالتفسير والتحليل في ضوء المناهج النقدية القديمة والحديثة، يقول لبيد بن ربيعة العامري في مقدمة معلقته الطللية مصورًا حالة وقوفه على الأطلال الدَّارِسة والرسوم العافية ذاكرًا مواقعها:

|  |  |
| --- | --- |
| عَفَتِ الديارُ محلُّها فمقامُها | بمنًى تأبد غولُها فرجامُها |
| فمدافع الريان عُرِّيَ رسمُها | خَلَقًا كما ضمِن الوُحِيَّ سلامُها |
| دِمَنٌ تجرَّم بعد عهد أنيسها | حِجَجٌ خَلَوْنَ حلالُها وحرامُها |
| رُزقَت مرابيعَ النجوم وَصابَها | وَدَقُ الرَّواعد جودُها فرِهامُها |
| من كل سارية وغادٍ مُدْجِنٍ | وعشيَّةٍ متجاوبٍ إرزامُها |
| فَعَلا فروعُ الأيْهَقانِ وأطْفلت | بالجلْهَتَين ظِباؤها ونعامُها |
| والعين ساكنة على أطلائها | عوذًا تأجل بالقضاء بِهامُها |
| وجلا السيولُ عن الطلول كأنها | زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُها |
| أو رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نؤورُها | كِففًا تعرَّض فوقهن وِشامُها |
| فوقفتُ أسألها، وكيف سؤالنا | صمًّا خوالدَ ما يبين كلامُها |
| عَرِيَتْ وكان بها الجميع فأبكروا | منها وغُودر نُؤيُها وثُمامُها |

فسرها أحمد الحوفي تفسيرًا واقعيًا فذكر أنّ الأطلالَ وثيقة الصلة بالمحبوبة حيثُ قال: "وإذا كانت الحبيبةُ هي المثير الطبيعيّ لعاطفة الحبّ فإنّ الأطلالَ هي المثير المقارن أو الصناعي".  
 لقد اكتفى الحوفي بربط الأطلال بالعاطفة وإثارتها عند الشاعر الجاهلي، فهي المثير الاصطناعي الذي يعادل عاطفة الحبّ عند المرء الجاهليّ. أما ذكر أسماء المحبوبة في المقدمة فهو اقتران معنويّ في أذهانهم. وقد حدّد الشعراء الأماكن خوفًا من درسها. ثم جاء يوسف خليف وبيّنَ أنّ تنقلَ الإنسان الجاهلي كان سببًا لظهور المقدمات الطلليّة، فأكد أنّ تنقلَ القبيلة من مكانٍ لآخر، وإقفار الديار وثورة الذكريات التي تختلج نفس الشاعر عند مروره الديار كانت البداية الطبيعيّة لظهور المقدمة الطلليّة في الشعر العربي. وقد ضاعت بداية المرحلة الطلليّة، ومن العسير البحث فيها.   
 واهتمّ الدكتور حسين عطوان بمقدمات القصائد فقدّم رأيًا عامًا، شمل فيه المقدمة الطلليّة وغيرها من مقدمات القصائد: "ونرى أنّ المقدمات جميعًا لا تعدو أنْ تكونَ ذكريات وضربًا من الحنين إلى الماضي، والنزاع إليه، فإنّ الشعراء دائمًا يرتدّون بأبصارهم وأنظارهم إلى الوراء إلى أغلى جزءٍ مضى وانقضى من حياتهم".  
 انطلق عطوان من مبدأ تذكّر الماضي، إذ قيّد مطالع القصائد بتذكّر وحنين إلى الماضي، ذاك الشطر الجميل الذي يستحق النزاع، والتأمل، كونه حِقبةً تحمل ذكرياتٍ تستحق البداية الاستهلالية التي اعتنى بها الشعراءُ في قصائدهم.  
 وحلّل كمال أبو ديب المقدمات الطللية تحليلاً بنيويًا فرأى أنّ وصف الأطلال يشكّل وحدة مكوَّنة من البنية متعددة الشرائح، والأطلال ليست كثيرةَ الظهور في القصائد من هذا النوع. وللأطلال قيمة في العمل الأدبي، فلم يقف الشاعر عندها وقوفًا عابرًا، ولم يتناولها لذاتها، بل نظر إليها من حيث التجسيد الرمزيّ الأعمق دلالة لفاعليّة الزمن.  
 واقتفى الدكتور حسن البنا عزّ الدين منهج كمال أبي ديب فتوقّف عند المقدمة الطلليّة من خلال مشكلة النسيب في النقد القديم. ووصف المقدمة الطلليّة وصفًا يكشف عن عناصرها البنائيّة من خلال تحليلٍ لبنية القصيدة، ورأى أنّ الأطلال تقف مثالاً جيدًا لفكرة العمل الأدبي بوصفه حدثًا كلاميّا أو لحظة حوارٍ بالغ الطول محتفظة بخصوصيتها التاريخيّة، وتفردها الفني.  
 وترى ريتا عوض أنّ الوقوفَ على الأطلال هو فعل طقسيٌّ ينطوي على الشعور بالرهبة والاحترام؛ لأنّ الإنسان يقف أمام القوى التي يخافها أو يحترمها. وخير مثال على ذلك وقوف الإنسان أمام الميت، أو كبير السن. فهذا الإحساس جعل الجاهلي يقف على أطلاله، حتى غدا طقسًا تقليديًّا شعريًّا، وأسندت رأيها على دلالة من امرئ القيس، فبيّنت أنّ وقوف رفاق الشاعر معه هو فعل اجتماعيٌّ بدا من خلال الفعل (قفا) مستندًا على التثنية؛ لأنّ الألف توحي بالتسامي ولأنّ الهم الذي يؤرقه هو همٌّ جماعيٌّ. حيثُ تقول: "ولقد وقف العربي على الطّلل لإحساسه بأنّه صورةٌ للزمن الذي يسلب الحياة من الإنسان والحيوان، والأرض، فانتصب أمامه خاضعًا وخائفًا يملأ قلبه الأسى، ولكنه أبى الرضوخ وتطلّع إلى تحقيق الانتصار. ولعل ما يعزّز الافتراض بأن للوقوف مدلولاً طقسيّا، وأن الشاعر لم يقف وحده، بل جعل ذلك الوقوف فعلاً اجتماعيّا يشاركه فيه آخرون، فأوحى من الكلمة الأولى في أن لا يروي حدثًا شخصيّا ولا يعبر عن همّ ذاتي بل يشارك في فعلٍ اجتماعي ويستلهم تراثًا ثقافيّا".  
 إنّ الحديثَ عن المقدمة الطلليّة حديثٌ يطول تبعًا للزاوية التي ينظرُ من خلالها المتلقّي، إذ لا يمكن حصر سبب الوقوف على الأطلال بتفسيرٍ واحدٍ، إذ لا بُدّ من تكامل النظرة في تحليلها، فطبيعة الحياة الجاهليّة وما فيها من ترحال تجعل الشاعر يتذكّر الدّيار الخالية، فيبدأ ذكرها في قصائده، ويرسم من خلالها صورةً صادقةً لبيئته؛ كونَه في موقف حزين، ويجبُ أنْ نربط ذلك بواقع الشّاعر القائم على التنقل سواءً بالبحث عن الكلأ أم بالصيد وغيره، واللاشعور هو السّبب الرئيس الذي يجعل الشاعر يفصل الحديث عن المكانِ وأهله. ولن يستطيعَ الدّارس أنْ يتبيّن ذلك دون تحليل بنية المقدمة والاعتماد على لغتها.

**2. المقدمات الغزليّة:**   
 وهي المقدمات التي وصف فيها الشعراء المرأةَ وصفًا حسيًّا ومعنويًّا. وعدّدها ليس قليلاً؛ لأنّها مرتبطة بالواقع الاجتماعي والنفسي للشاعر. ويؤدي الحديث عن الطّلل غالباً إلى الحديث عن الغزل، وهذا يؤكد الصلة الوثيقةَ بين الطلل والغزل.  
 ويؤكد الدكتور يوسف خليف أنّ المقدمة الغزلية كالطلليّة هي إثبات للوجود أمام مشكلة الفراغ. ويشير إلى أنّ المقدمة الغزليّة كانت كثيرة الانتشار، وقد اقتربت من المقدمات الطللية، إلا أنّها تتحدث عن الحبيبة نفسها لا عن أطلال الحبيبة.  
 وتقوم المقدمة الغزلية على محورين أساسيين، وهما: المحور الأول: وصف الحبيبة حسيًّا ومعنويًا، والتغني بجمالها الجسدي والنفسي. والمحور الثاني: تصوير عواطف الشاعر ومشاعره لها.  
 ويبيّن حسين عطوان أنّ الشعراء يتحدثون في مقدماتهم الغزلية عن هيامهم بمحبوباتهم وما يقاسون من الآلام في حبهم لهن، أثناء انفصالهم عنهن، إلى جانب عنايتهم على تبيان الجمال المادي في خليلاتهم.  
 ويذكر نجيب البهبيتي أنّ المقدمة الغزلية صورةٌ رمزيّةٌ في الشعر الجاهلي، فلم يقف عند المقدمة كقصة، وإنّما تعدّاها إلى ذلك الغزل الذي يقدم به الشاعر لقصيدته، ليدخلَ إلى ما يهمّه، ويأخذ عليه نفسه، ومن هنا يأخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجوّ الذي يعيش فيه الشاعر والذي يملي عليه شعره.  
 ويرى الدكتور يحيى الجبوري أنّ المقدمات الغزليّة فيها إحساسٌ دقيقٌ بالخيال، وتذوقٌ لمحاسن المرأة، حتى أنّ القارئَ يشعر بهزة من شوق وإقبالٍ على الحياة وامتزاجٍ بها.  
يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

|  |  |
| --- | --- |
| آذَنَتْنَا بِبَينِهَا أَسْمـــاءُ | رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ |
| آَذَنَتنــا بِبَينِهـا ثُمَّ وَلَّت | لَيتَ شِعري مَتى يَكونُ اللِقاءُ |
| بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَة ِ شَمّاءَ | فَأَدْنَى دِيارِها الخَلْصــاءُ |

**3. المقدمات الخمريّة:**  
 وفيها يختفي منظر الوداع التقليدي، وما يتصل به من حديث الظعائن المسافرات، وتحلّ مكانه مناظر مجالس الشراب بسقاتها وندمائها... وفي بعض الأحيان يظهر فيها الحديث عن المرأة، وعواطف الشاعر ومشاعره، فهي مزاج من عناصرَ شتى ومقوماتٍ متعدّدةٍ، ولكن الغريب في الكثير من المقدمات الخمرية هو حديث الشعراء عن الموت والفناء.  
 وقد أثارت المقدمة الخمرية حسين عطوان ـ لاسيّما عند عمرو بن كلثوم ـ ورأى أنّ القصائد الجاهلية لم تُفتتح بوصف الخمرة.  
**4.مقدمات الظعائن:**  
 وفيها يعبر الشاعر عن حزنه وأسفه وخيبة أمله نتيجة الرحلة والفراق فهو يتحدث عن أكثر من قضيةٍ. وأكدّ الدكتور حسين عطوان أنّ القدماء لم يعنوا بهذا النوع من المقدمات عنايةً كبيرةً. وسببُ ذلك ليس عدم معرفة الشعراء بها أو جهلهم إياها.  
 إنّ تقاليد وتفاصيل مقدمة الظعن بما يتصل بها من وصف الاستعداد للارتحال، أو بالإبل وهوادجها وثيابها وألوانها، أو بالحادي والدليل أو بالطريق ومخاطرها أو بغاية الرحلة معروفة لدى الشعراء الجاهليين، فكثيرٌ من تقاليدها ثابتة لديهم.  
**5. مقدمات بكاء الشيب:**  
 يصور بها الشعراء أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه ذهاب الشباب رمز القوة والفتوة، فليس أمامهم إلا تذكّر الأيام الماضية، وهي من الفخر الذاتي.  
 ويؤكد الدكتور يوسف خليف أنها تصدر لذات الدوافع التي تصدر لها المقدمات الأخرى وهي الفراغ، علمًا أنّ ظاهرها يبدي دوافعَ أخرى. ومقدمات الشيب والشباب تعبير عن الحنين إلى الماضي الجميل الذي ذهب من غير رجعةٍ، وهي مليئة بالذكريات وما تنطوي عليه من متعٍ عاشها الشاعر.  
يقول علقمة:

|  |  |
| --- | --- |
| طحا بك قلب في الحسان طروبُ | بعيد الشباب عصر حان مشيب |

**6. مقدمات وصف الطيف:**   
 وفي هذه المقدمات يتعجب الشعراء من أطياف محبوباتهم، وكيف جازت القفار، وعرفت المسالك حتى وصلت إليهم وداعبتهم، وهم يغطّون في النوم بسبب التعب، مع علمهم أنّ محبوباتِهم لا يستطعن الوصول إليهم.  
 ومن ذلك قول عمرو بن قميئة:

|  |  |
| --- | --- |
| نـأتــك أمـامـة ُ إلا سُــؤالاً | وإلا خـيـالاً يـوافـي خـيـالا |
| يُوافـي مـع الليـل ميعـادُهـا | ويأبـى مـع الصبـح إلا زيـالا |
| فـذاك تَـبـدّلُ مــن ودّهــا | ولو شهِـدتْ لـم تُـواتِ النَّـوالا |

وهكذا يمكن القول: إنّ مقدمات القصائد تعكس الموضوع الرئيس الذي يتحدث عنه الشّاعر فيما بعد، ولا بُدّ أن يكونَ جهدُ الشّاعر واضحًا في مقدمته؛ لما يقع عليها من دورٍ في لفت انتباه القارئ أو المتلقّي، ومقدمات القصائد الجاهليّة كانت غنيّة بما تظهره من قدرة شعراء ذلك العصر، سواءً باختيار المفردات، أم التّصوير، أم البراعة في اختيار التراكيب ... وهذا هو السرّ الأساسيّ في جمال مقدمات القصائد الجاهليّة، دون إغفال موضوعاتها التي تساعد الشاعر في الانتقال إلى موضوع القصيدة الرئيسي؛ حتى يستطيع الإتيان بقصيدة ذاتِ وحدة موضوعيّة.